

التوبة والغفران في القرآن الكريم

المعاني العامة لبعض المفردات:

(إنَّي) : ضمير عائد إلى سبحانه وتعالى، أي: أنَّ الله تعالى عهد على نفسه بالمغفرة إلى من رجع له سبحانه وناب إليه.

(الغفور): اسم مشتق من المغفرة، وهو الغافر الغفار، وأصله في اللغة التغطية والستر، وكلمة (غفار) صيغة مبالغة، وتوحي أنَّ الله سبحانه لا يقبل هؤلاء التائبين ويشملهم برحمته التي وسعت كلَّ شيء مرة واحدة فقط، بل سيعمهم عفوه ومغفرته مرات ومرات.

(تاب): لمن تاب من المعاصي والشرك.

(اهتدى): ملازمة الإيمان إلى الموت. وبحسب تفسير أهل البيت (عليهم السلام) إنَّ المقصود من قوله (ثُمَّ اهْتَدَى) هو الاهتداء إلى ولايتهم.

تعريف التوبة

وعرَّفها، الشيخ المفيد، بقوله: (إنَّ حقيقة التوبة هي الندم عن المعصية والعزم على عدم العود إلى مثلها في القبح). (أوائل المقالات، ص192. مثله عرَّفها الشيخ الطوسي في التبيان ج3، ص145).

وعرَّفها الشيخ محمد أمين زين الدين بقوله: (التوبة هي ندم العبد على ما فعل من المعاصي) [كلمة التقوى، ج1، ص193].

شروط التوبة

جاء في جملة ما ذكره الإمام علي (عليه السلام) في خصوص التوبة، أنَّ شروطها ستة:

أولها: الندم على ما مضى من الذنب، وهو شرط صحة، أو قل هو الركن الأول من أركانها وبدونه لا تتحقق التوبة.

ثانيها: العزم على ترك الرجوع إلى الذنب، وهو شرط صحة أيضاً، وهو الركن الثاني لها.

ثالثها: إرجاع حقوق الآخرين، شرط قبول؛ إذ قد يكون العمل صحيحاً ولكنه غير مقبول عند الله تعالى، كمن يصلي صلاة يومية صحيحة من حيث الشرائط، ولكن من حيث الواقع غير مقبولة عند الله تعالى، كمن لا تنهيه صلواته عن فعل القبيح والمنكر { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } [العنكبوت: 45].

رابعها: تأدية حقوق الله تعالى، وهو شرط قبول أيضاً.

خامسها: إذابة اللحم الذي بني من الحرام، وهو شرط قبول أيضاً.

سادسها: إذابة البدن ألم الطاعة، وهو شرط قبول أيضاً.

كما ذكرنا أن هذه الشروط المتقدمة قد جاء ذكرها في جواب أمير المؤمنين علي (عليه السلام) لمن قال في حضرته: (استغفر الله)، قال (عليه السلام): (ثكلتك أمك أتدري ما الاستغفار، إن الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معان أولها الندم على ما مضى، والثاني العزم على ترك العود إليه أبداً، والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملك ليس عليك تبعه، والرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها تؤدي حقها، والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلتصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد، والسادس أن تذيب الجسم ألم الطاعة كما أذقت حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفر الله) [نهج البلاغة: المختار من الحكم رقم 417].

شروط الغفران:

ذكرت الآية مورد البحث شروطاً خاصةً لتحقيق المغفرة الإلهية، كان من بينها الشرط الأول وهو التوبة، أي لا بد على العبد أولاً الإقلاع عن المعصية وتركها بالابتعاد عمداً حرمة الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله) لكي يهيئ أرضية نفسه بحيث تكون روحه نقية زكية خالية من أثر جميع المعاصي بغسلها بماء التوبة.

ثم ذكرت شرطاً ثانياً، وهو الإقلاع عن الشرك بتحقيق الإيمان؛ إذ إن ناقص الإيمان، الذي له أبواب وشعب متعددة، حتى قيل له أكثر من سبعين باباً، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق.

ثم بعد التوبة والإيمان لا بد أن يقوم بغرس الطيب لكي يجني ثماره بعد ذلك، وهو الشرط الثالث للمغفرة، أعني العمل الصالح، كما قال عز وجل {وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: 10]. فمن ليس له إلا الإيمان ومقصر في الأعمال، فإنه قريب من أن تنقل شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان، كمجيء لحظة الموت وقدم ملك الموت ووروده؛ بينما قال الله تعالى في حق صاحب الإيمان {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [المجادلة: 11].

ثم ذكرت الآية الكريمة شرطاً رابعاً معتبرة إياه أهم من الشروط السابقة، وهو شرط الاهتداء، وجاء في تفسير أهل البيت (عليهم السلام) لها بأن المراد من الاهتداء هنا هو الاهتداء إلى ولايتهم (عليهم السلام)، كما جاء ذلك في رواية عن الباقر (عليه السلام)، أنه قال: (ثم اهتدى إلى ولايتنا أهل البيت) ثم أضاف (فو الله لو أن رجلاً عبد الله ما بين الركن والمقام، ثم مات ولم يجيء بولايتنا لأكبته في النار على وجهه) [تفسير نور الثقلين، ج3، ص387].

والآية قد أشارت إلى لزوم قبول الولاية، والالتزام بقيادة القادة الربانيين، أي: أن المغفرة لا تتحقق بدونها حتى مع تحقق التوبة والإيمان والعمل الصالح، والاستمرار عليها.

النتيجة:

إن طبيعة الإنسان ميّالة للرغبات والشهوات الحيوانية وأنّها ما أن تحس بالنعيم والتنعيم تطغى

وتستغني عن الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّكَ لِلْإِنْسَانِ لَظَلِيمٌ غَفِي * أَنْ رَأَىٰ هُوَ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: 6-7] ولكن الإنسان المؤمن بالله سرعان ما أن يلتفت إلى نفسه فيندم على ما فعل ويسرع بإعلان التوبة والإنابة إلى الله تعالى خصوصا وأن الله تعالى جعل باب التوبة مفتوحا دائما أمام كل من يريد الدخول منه للرجوع عن معصيته؛ نتيجة الغفلة عن ذكر الله فأنساهم الله أنفسهم ولا تكفونوا كآل الذين نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنزَفْنَاهُمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [الحشر: 19].

وعن الإمام الصادق (عليه السلام): أوحى الله عز وجل إلى داوود النبي: يا داوود إن عبيد المؤمنين إذا أذنب ذنبا، ثم رجع وتاب من ذلك الذنب، واستحيا مني عند ذكره غفرت له، وأنسيته الحفظة وأبدلته الحسنة، ولا أبالي، وأنا أرحم الراحمين. [بحار الأنوار، ج 6 ص 28].